الأمر بالتقوى في القرآن ملحقا به ضمير الغائب

دراسة في المغزى والأنساق

علا سعد أحمد محمد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

تعددت مساقات التقوى في القرآن الكريم وتعددت أيضا أنماط التداول العلمي لها ، والتي كان من بينها الدراسات البلاغية التي يعد هذا البحث منتظما في سلكها ، حيث يعنى بدراسة مغزى الأمر بالتقوى في الأنساق التي جاء مفعول الأمر بالتقوى فيها ضميرا للغائب ، ومع ما حمَّله المفسرون للأمر بتقوى الله من دلالات الرهبة كان استبدال الاسم الظاهر " الله " ، " ربكم " بضمير الغائب كمفعول للأمر بها لافتا للانتباه ، حيث أنه لم يذكر في القرآن الكريم بهذه الصيغة سوى في أربعة مواضع فقط ، وقد جاء ضمير الغيبة عائدا على لفظ الجلالة في اثنين منها حيث ذكر قبل الأمر بالتقوى مباشرة وكان معطوفا على الأمر بالعبادة في سياق دعوة الأنبياء (نوح ، وإبراهيم) لأممهم ، بينما جاء في الموضعين الآخرين يفصله عن الاسم الظاهر الذي يعود عليه عدة كلمات والاسم الظاهر في أحدهما جاء لفظ الجلالة (الله) وجاء في الموضع الآخر الوصف الجليل (رب العالمين) وقد تلازم في الموضعين ورود الأمر بالصلاة حيث ذكر سابقا للأمر بالتقوى في إحداها وتاليا له في الأخرى ..

وذلك في قوله تعالى :

1- قوله تعالى : {وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72)} [الأنعام: 72]

2- قوله تعالى : {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16)} [العنكبوت: 16]

3- قوله تعالى :{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) } [الروم: 31، 32]

4- قوله تعالى : {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) } [نوح: 2 - 4]

جاء الأمر بالتقوى في آيتي العنكبوت ونوح على هذه الصيغة " واتقوه " في سياق حكاية ما قاله إبراهيم ونوح عليهما السلام لأممهم ، فقال إبراهيم عليه السلام لقومه : " اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " ، وقال نوح عليه السلام لقومه : " يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ " وقد اتفق السياقان في مجيء الضمير عائدا على متقدم قريب الذكر وهو في الحالتين لفظ الجلالة " الله " كما عطف الأمر بالتقوى في الموضعين كليهما على الأمر بعبادة الله تعالى غير أن الأمر بالتقوى في سياق دعوة إبراهيم عليه السلام عطف عليه خبر " ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ " ، بينما عطف على الأمر بالتقوى في سياق دعوة نوح عليه السلام إنشاء طلبي " وأطيعون " ومع وجود هذه الاختلافات بين السياقين فإننا لا نجد لها أثرا كبيرا على الأمر الأول في الآية وهو عبادة الله أما مغزى التقوى فقد لامس في كل موضع حيثيات أخرى ، غير أن تعلقها بقضية ثابتة هي الأمر بعبادة الله تعالى والتي استمدت ثباتها من أمرين :

الأول : ثبات المدعو لعبادته وهو الله عز وجل مهما تغيرت الأمم والأنبياء والأزمان

والآخر : أنها محور الدعوة و منهج كل الأنبياء الذين بعثوا لجميع الأمم

فإذا كان المدعو لعبادته واحدا ثابتا أمام المتغيرات الأخرى وكان المنهج المتبع في الدعوة ثابتا أمام المناهج المختلفة فلا بد من تطابق دلالة الأمر بالعبادة في كل مرة ، غير أن الأمر بالتقوى سيتعلق بنوعية المأمورين لتقويم اتجاه الانحراف الذي لديهم حتى يستطيعوا تنفيذ الأمر الثابت (عبادة الله تعالى) وهذا هو مكمن التغير في مفهوم الأمر بالتقوى بين الآيتين السابقتين والذي يمكن الاستدلال عليه من خلال سياق كل سورة ومساقات ذكر القصة في كل منهما ، حيث يظهر في سورة العنكبوت بيان أنماط الناس في اتجاهات العبادة وتغلب عليها نبرة بيان عظمة الله في خلقه وعطائه للعباد ومن ثم فهي توضح أن مبتغيي الخير و مريديه حقيقة ليس لهم سبيل إلى الخير إلا بالتوحيد فيكونون مع الله وأن أي انحراف في قضية التوحيد سيؤدي بالضرورة إلى الخسارة ، ويظهر ذلك بداية من اسم السورة " العنكبوت " حيث جاء ذكر العنكبوت في قوله تعالى : {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41)} [العنكبوت: 41] وفي نسق

الأمر بالتقوى جاء الختام : " ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " وكأن نسق الأمر بالعبادة والتقوى الذي ختم " بإن كنتم تعلمون " جاء في مساق إثبات هذه القاعدة الختامية التي جاء الشرط فيها امتناع لامتناع " لو " كختام يثير الحسرة لدى من امتنع عن اتباع السبيل وترك العلم الحقيقي الذي بينه إبراهيم عليه السلام وعليه فإن التقوى المأمور بها تكاد تمثل كل ما يترتب على الدخول في عبادة الله تعالى ، أو هي ما جاء توضيحه في الآية التالية لها : " إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ " أي ابتغاء الرزق عند الله وحده وشكره وحده عليه وهذا تحديدا هو موضوع توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية فكأن مغزى الأمر بالتقوى في الآية هو تحقيق الإخلاص في العبودية المأمور بها والتخلص من كل اتجاهات الموالاة لغير الله تعالى ، ويؤكد هذا المغزى أيضا ما قاله لهم إبراهيم عليه السلام بعد أن أعلنوا كفرهم واتخذوا القرار بإحراقه كبيان ختامي يوضح حالهم ووجه تعلقهم بالشركاء في قوله تعالى : {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [العنكبوت: 25] ومن ثم بيان النتيجة المترتبة عليه : " ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ " [العنكبوت: 25] كل هذه الدلائل في سياق السورة تؤكد أن مغزى الأمر بالتقوى في السورة لم يكن مقصورا على مفهوم الخشية فقط الذي اعتمده كثير من المفسرين " وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ يعني وحدوا الله وَاتَّقُوهُ يعني واخشوه " [1] كما أنه ليس الخوف باعتباره قريبا من معنى الخشية : " أطيعوا الله وخافوه " [2] كما أنه ليس اتقاء العقاب والعذاب فقط "كما اعتمد البعض الآخر من المفسرين معناه : " (إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ) أَيْ أَفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ. (وَاتَّقُوهُ) أَيِ اتَّقُوا عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ. (ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ) أَيْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ). " [3] فالتحذير من عذاب الله وعقابه جاء مباشرا كنتيجة متحققة في حالة الكفر كما أن الفوز بالجنة نتيجة متحققة في حالة الإيمان : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

(23) } [العنكبوت: 23] وربما اقترب الرازي من تحديد مغزى التقوى عندما ربطها بسياق الأوامر في السورة فأقام لها مغزى تكميليا جديدا يتعاضد مع السياق فقال : " وَاتَّقُوهُ إِشَارَةٌ إِلَى نَفْيِ الْغَيْرِ لِأَنَّ من يشرك مع الْمَلِكِ غَيْرَهُ فِي مُلْكِهِ يَكُونُ قَدْ أَتَى بِأَعْظَمِ الْجَرَائِمِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: اعْبُدُوا اللَّهَ إِشَارَةٌ إِلَى الْإِتْيَانِ بِالْوَاجِبَاتِ، وَقَوْلُهُ: وَاتَّقُوهُ إِشَارَةٌ إِلَى الِامْتِنَاعِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ وَيَدْخُلُ فِي الْأَوَّلِ الِاعْتِرَافُ بِاللَّهِ، وَفِي الثَّانِي الِامْتِنَاعُ مِنَ الشِّرْكِ " [4] وهو رأي يستحق التقدير غير أن التوحيد وحده وإثبات العبودية لله وحده يؤدي انتفاء الشرك ولهذا أحسب والله أعلم أن مفهوم الالتزام بمتطلبات التوحيد أو تمام الإخلاص في تفاصيل العبادة القلبية والعملية واتساقهما قد يكون هو المغزى الأقرب للأمر بالتقوى في هذه الآية .

وإذا تأملنا مساق النسق الذي جاء في سورة نوح نجد أن مسمى السورة تعلق بالنبي وليس بحالة من اتخذ من دون الله أولياء كما كان المسمى في سورة العنكبوت وهذا يجعل محور الاهتمام في السياق هو الخطوات التي اتبعها النبي في البلاغ ويكون موقف المدعوين أمرا ثانويا يظهر كنتيجة لجهود نوح عليه السلام ، وهذا يفسر بوضوح وجه العطف على الأمر بالتقوى بأمر الطاعة {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ } [نوح: 3] حيث تكمن حيثيات التنفيذ للأمر بعبادة الله و بتقواه في الالتزام بكل ما أمر به نوح عليه السلام قومه فيكون مغزى التقوى متعلقا بمفهوم العبادة ومفهوم الطاعة ، أو أن يكون المقصود هو عبادة الله وتقواه وطاعة النبي باعتبار أن كل منهم يمثل خطوة في تنفيذ الإيمان فيكون مغزى الأمر بالتقوى متفردا بدلالة خاصة بين الأمر بالعبادة والأمر بطاعة النبي ، كما قد يتضح أيضا أن الأمر بطاعة النبي هو تنفيذ الأمرين السابقين له عبادة الله وتقواه أي أطيعون بتنفيذهما .

لقد توجه المفسرون في تفسير الأمر بالتقوى في هذا الموضع عدة توجهات فمنهم من رأى أنها جانب الانتهاء عن المعاصي واعتبر العبادة جانب الالتزام بالأوامر وقد فصل في ذلك الرازي فقال : " إِنَّهُ أَمَرَ الْقَوْمَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ وَطَاعَةِ نَفْسِهِ، فَالْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ وَأَفْعَالِ الْجَوَارِحِ، وَالْأَمْرُ بِتَقْوَاهُ يَتَنَاوَلُ الزَّجْرَ عَنْ جَمِيعِ الْمَحْظُورَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَقَوْلُهُ: وَأَطِيعُونِ يَتَنَاوَلُ أَمْرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَجَمِيعَ الْمَأْمُورَاتِ

وَالْمَنْهِيَّاتِ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ، إِلَّا أَنَّهُ خَصَّهُ بِالذِّكْرِ تَأْكِيدًا فِي ذَلِكَ التَّكْلِيفِ وَمُبَالَغَةً فِي تَقْرِيرِهِ " [5] ويكون الرازي بذلك يقر للأمر بالتقوى مغزى واحدا يوظفه في كلا الموضعين حيث اعتبرها كذلك أيضا في آية سورة العنكبوت مع أنه تنبه هناك لدلالة السياق وهوما لم يشغله في سورة نوح حيث اتجه لبيان الأوامر الثلاثة فقط ووافق في بيان التقوى ما قاله عنها في سورة العنكبوت . وهو رأي مأثور عام في هذا المعنى جاء في الدر المنثور في التفسير بالمأثور " أخرج عبد بن حميد عَن قَتَادَة فِي قَوْله: {إِن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون} قَالَ: بهَا أرسل الله الْمُرْسلين أَن يعبد الله وَحده وَأَن تتقى محَارمه وَأَن يطاع أمره " [6] وهو قول عام يوضح الهدف من دعوة نوح عليه السلام لا يوضح مغزى كل مفردة من الآية ولم يتعرض لسياق السورة واختلاف غرضها عن بقية السور والمواضع .

إن اختلاف السياق أمر لابد من أخذه بعين الاعتبار فقد جاء الأمر بالتقوى مقرونا بالطاعة في سورة الشعراء أيضا غير أن مفعوله لم يكن ضميرا للغائب كما في سورة نوح وكان السياق أيضا عاملا فارقا في اظهار المفعول وإضماره فلم يكن الأمر بالتقوى في سورة الشعراء معطوفا على الأمر بعبادة الله حيث كان السياق فيها يعدد مواقف الأنبياء مع الأمم في تسلسل يبين وحدة الرسالة والهدف وثبات المنهج ، أما في سورة نوح فقد عطف الأمر بالتقوى على الأمر بعبادة الله وجاء مفعوله ضمير عائد على مفعول العبادة في إشارة إلى امتزاج الأمر بالتقوى مع الأمر بالعبادة ليكون مغزى الأمر بالتقوى تحقيق العبودية في جانبها التنفيذي وكأن تحقيق قبول الرسالة يعتمد على أن يعبدوا الله ويقتنعوا بتنفيذ الأوامر الربانية فينشأ من ذلك المرحلة الثالثة وهي طاعة نوح عليه السلام في ما يستلزمه إيمانهم بعد ذلك من أداء عبادات وترك منهيات ولم يقل أحد من المفسرين بذلك حيث اعتبر معظمهم " اتقوا الله " بمعنى خافوه أو اخشوه يقول بذلك القرطبي : " اعْبُدُوا أَيْ وَحِّدُوا. وَاتَّقُوا: خَافُوا. (وَأَطِيعُونِ) أَيْ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ." [7] ولم يكن تأويل الأمر بالتقوى أنها الحذر من الله بمعنى يبعد عن

مفهوم الخوف عند من قال به : " {أن اعبدوا الله} وحدوه وأن هذه نحو أَنْ أَنذِرِ في الوجهين {واتقوه} واحذروا عصيانه {وَأَطِيعُونِ} فيما آمركم به وأنهاكم عنه وإنما أضافه إلى نفسه لأن الطاعة قد تكون لغير الله تعالى بخلاف العبادة " [8] ومع أن النسفي اجتهد في بيان مفهوم الطاعة إلا أنه لم يتجاوز في دلالة الأمر بالتقوى عن ذكر الحذر من المعصية وكأنه يجمع بين رأي الخوف ورأي اجتناب المعاصي ، بينما أخذ البقاعي المعنى العام الذي يقال عند تعريف التقوى وألف بينه وبين الأمر بالتقوى في هذا الموضع دون التعرض لنسقه الخاص الذي تميز به حين قال : " {واتقوه} أي اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية تمنعكم من عذابه بالانتهاء عن كل ما يكرهه، فلا تتحركوا حركة ولا تسكنوا سكنة إلا في طاعته، وهذا هو العمل الواقي من كل سوء " [9] وهو بهذا لم يجعل للأمر الذي جاء في القرآن الكريم بصيغ كثيرة مختلفة مغزى خاصا يجعله يتميز في كل مرة فيعطي لسياقه إضافة ذات طابع خاص ينسجم مع المعاني والقيم والأهداف التي جمع بينها السياق . ولذا فإن أقرب معنى للأمر بالتقوى في هذا الموضع هو اعتبارها المرحلة التنفيذية لأمر عبادة الله في تحقيق القبول الذي يحصل من الأمر الأول " اعبدوا الله " ، ومن ثم يكون الأمر الثالث " وأطيعون " هو خطوات الالتزام بالأداء العملي في كل المنهيات والمأمورات التي تترتب على القبول لفكرة العبادة لله وحده وتنفيذها قولا وعملا (الإيمان والتصديق) والله أعلم .

لقد جاء الأمر بالتقوى ومفعوله ضمير الغائب أيضا وقد اتصل به الأمر بإقامة الصلاة مع تبادلية الترتيب في :

قوله تعالى : " وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ " (الأنعام 72)

وقوله تعالى : " مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (الروم 31)

وأول ما يلفت النظر في هذين النسقين هو تلك المسافة الفاصلة بين الضمير والاسم الظاهر الذي يعود عليه واختلاف الاسم الظاهر بين الوصف " رب العالمين " في سورة الأنعام وبين لفظ الجلالة " الله " في سورة الروم ، ثم تقدم الأمر بإقامة الصلاة على الأمر بالتقوى في سورة

الأنعام وتأخره عنه في سورة الروم ثم الختام الخبري في سورة الأنعام والإنشائي في سورة الروم وطبيعة هذا الختام التي تكشف علاقة كل آية بسياقها و عليه فإنها تؤكد على تنوع مغزى الأمر بالتقوى في كل نسق ليؤدي دورا خاصا في كل سياق .

وفي سياق سورة الأنعام سبقها قوله تعالى : { قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام: 71] فهي تعرض الحوار بين طرفين فئة مؤمنة وفئة ضالة أما في سورة الروم فيسبق الآية قوله تعالى : " { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الروم: 30] وهو أمر من الله تعالى للنبي وهذا يفسر خاتمة كل آية منها ، ففي الحوار بين داعي الهدى وداعي الكفر في سياق سورة الأنعام كان مناسبا بيان وجه اتباعهم للهدى و النتيجة المترتبة على إسلامهم لرب العالمين وهي نجاتهم عندما يحشرون إليه ، كما أن سياق السورة قبل ذلك بين أن محك الهداية التي تؤدي لترجي التقوى هو إدراك وقوع الحشر والتصديق به وذلك في قوله تعالى : { وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [الأنعام: 51] فإدراك أن الحشر سيكون إلى الله والخوف من هذا المشهد هو المرحلة التي تجعل الإنذار يؤدي دوره فيرجى به حدوث التقوى ، ولأنهم قوم قد اهتدوا بالفعل وإنما قولهم جاء كوصف لمراحل هذه الهداية التي كان الإسلام لرب العالمين هو الخطوة الأولى فيها فقد جاء العمل متمما كخطوة ثانية يجسده إقامة الصلاة ومن ثم جاء الأمر بالتقوى وكأنه الجانب القلبي من العبادة أو كأنها مرحلة اكتمال الإسلام وأداء العبادات لأن بداية سورة البقرة في عرض صفات المتقين الذين تحصل لهم الهداية بالقرآن جاء الإيمان بالغيب أولا وبعده إقامة الصلاة ، كما أن هذا التسلسل الإيماني الذي عرضه المؤمنون يتناسب مع الاسم الظاهر الذي يعود عليه الضمير وهو الوصف الجليل " رب العالمين " فلما يأتي على لسانهم وصف الربوبية فمن المدرك عقلا أنها لن تكون قبل توحيد الألوهية ففيه توكيد على بلوغهم درجة الإيمان الكامل بالله تعالى ومع

ذلك يقول مقاتل في تفسيره لهذه الآية " وَاتَّقُوهُ يعني وحدوه " [10] بينما في الموضع الذي كان ختامه النهي عن الشرك تأول مغزى التقوى بقوله : " «وَاتَّقُوهُ» يعني واخشوه " [11] مع أن نسق التتابع في الأوامر في سورة الروم كان مختلفا حيث عطفت الآية التي تخاطب الجماعة على الآية التي تتحدث إلى الفرد الذي يمثل الجماعة (محمد صلى الله عليه وسلم) وبدأ الأمر للجماعة بوصف حالهم في الاهتداء (منيبين إليه) ثم جاء الأمر بالتقوى ثم أداء الصلاة ، ومن ثم جاء الختام بأن المخالفة تؤدي للخروج من حدود الدين وهذا لأن سورة الروم لم تكن حوارا بين الهداية والضلال بل كانت خطابا فاصلا من الله عز وجل يبين فيه سمات الحق ويعززها ويقرر فيه مواقف الضلال ويوبخ عليها ويبين عواقبها ولذلك كان الختام في الآية طلبيا لمن يلتزم بهذه الأوامر يخرج الطلب فيه لمعنى التحذير من التجاوز في هذه الأوامر حتى لا يقعوا في الشرك أو أنها نهي منفصل في سياق الأوامر أي أنيبوا إلى الله واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تشركوا بالله ، وقد أعطى الرازي الأمر بالتقوى هنا مغزى جديدا في قوله : " لَمَّا قَالَ حَنِيفًا أَيْ مَائِلًا عَنْ غَيْرِهِ قَالَ: مُنِيبِينَ إِلَيْهِ أَيْ مُقْبِلِينَ عَلَيْهِ، وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: فَأَقِمْ وَجْهَكَ مَعَ النَّبِيِّ وَالْمُرَادُ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَوْلُهُ: وَاتَّقُوهُ يَعْنِي إِذَا أَقْبَلْتُمْ عَلَيْهِ وَتَرَكْتُمُ الدُّنْيَا فَلَا تَأْمَنُوا فَتَتْرُكُوا عِبَادَتَهُ بَلْ خَافُوهُ وَدَاوِمُوا عَلَى الْعِبَادَةِ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ أَيْ كونوا عابدين عند حصول القربة كما قلتم قَبْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ يَعْنِي وَلَا تُشْرِكُوا بَعْدَ الْإِيمَانِ أَيْ وَلَا تَقْصِدُوا بِذَلِكَ غَيْرَ اللَّهِ، وَهَاهُنَا وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ بِقَوْلِهِ: مُنِيبِينَ أَثْبَتَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ مُخْرِجٌ عَنِ الْإِشْرَاكِ الظَّاهِرِ وَبِقَوْلِهِ: وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَرَادَ إِخْرَاجَ الْعَبْدِ عَنِ الشِّرْكِ الْخَفِيِّ أَيْ لَا تَقْصِدُوا بِعَمَلِكُمْ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ وَلَا تَطْلُبُوا بِهِ إِلَّا رِضَاءَ اللَّهِ " [12] لقد تأول الرازي لبيان المخالفة بين بداية الآية وختامها و مع أنه أضاف اتساعا لمغزى الأمر بالتقوى في عمومية العبادة إلا أنه أيضا أضافها لدلالة الخوف الدافع للمراقبة مع أنها عطفت على الإنابة ولم تعطف على الصلاة كما في سورة الأنعام والإنابة تتعلق بالإيمان .

فكأن التقوى في آية الأنعام جاءت تعزيزا للعمل إذ تقدم عليها الأمر بالصلاة وما كان تعزيز العمل إلا تجهيزا للقاء الله وادخارا ليوم الحشر الذي جاء تقريره في ختام الآية وهذا ما يليق بحال من وقف موقف المحاور لفئة من أهل الضلال تتجاذبهم الأهواء وقد استهوتهم الشياطين ، فإذا تأملنا التصوير في مشهد الضال الحائر { كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا} [الأنعام: 71] نجده يتمثل في :

مشهد " استهوته الشياطين في الأرض " و مشهد " الحيرة "

يقابلهم في حال المؤمن الطائع :

مشهد " لنسلم لرب العالمين " ومشهد " أقيموا الصلاة "

وهذا يفسر تأخر الأمر بالتقوى في هذا الموضع وهو ما لم يحدث في سورة الروم لأن السياق كان مغايرا وكذلك المخاطب وحيثيات الموقف وعليه فإن مغزى التقوى جاء في سورة الأنعام تعزيزا للعمل الذي يثبت المؤمنين في الدنيا فيحميهم من الحيرة وهو مدخرهم للقاء الله في أهوال الحشر ، أما في سورة الروم جاء الأمر بالتقوى متوسطا بين هيبة موقف الإنابة وعملية الالتزام بالعمل " وأقيموا الصلاة " ليؤدي تعزيزا في جانب الإيمان وتثبيته في القلوب لأن الموقف في سورة الروم كان مغايرا فهو تقرير من الله في جانب أهل الحق وتوبيخ لأهل الكفر الثابتين على كفرهم الذين يحاربون الإيمان بكل صوره ولهذا جاء الأمر بالتقوى معززا لمفهوم الإيمان " منيبين إليه " فالقضية في السياق إيمان مقابل كفر ليس مشهد لحيرة الكافر أمام مشهد لثبات المؤمن . ثم إن في استخدام ضمير الغائب تثبيت لشدة المعرفة لله وعمق العقيدة ، لكون ضمير الغائب أعرف المعارف حيث ذهب سيبويه والجمهور إلى أنَّ أعرف المعارف الاسم المضمَر ؛ لأنَّه لا يُضمر إلاَّ وقد عُرف ؛ ولهذا لا يفتقر إلى أنْ يوصف كغيره من المعارف. [13] وقال أبو حيّانَ : "لا أعلمُ أحداً ذهبَ إلى التفصيلِ في المضمرِ، فجعلَ العَلَمَ أعرفَ من ضميرِ الغائبِ إلا ابن مالك. والذين ذكروا أنَّ أعرفَ المعارفِ المضمرُ قالوه على الإطلاقِ ثم يليه العَلَمُ " [14] وهذا قد يعطي تفسيرا واضحا لاختصاص هذه المواضع الأربعة

دون غيرها في القرآن الكريم بأن يكون مفعول التقوى الضمير ليبين يقين وثبات الفئة التي وقعت في حكاية الأمر بالتقوى الذي جاء على لسان إبراهيم ونوح عليهما السلام في سورتي العنكبوت ونوح ، ثم في حكاية الموقف الإيماني في سورة الأنعام وكذلك لتعزيز ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه في سورة الروم ومما قيل في توكيد هذه الدلالات القلبية لضمير الغائب : " وأما ضمير الغائب المنفصل ف " هاء " بعدها " واو " خصت " الهاء " بذلك، لأن الغائب لما كان مذكوراً بالقلب واستغنى عن اسمه الظاهر بتقدمه ، كانت الهاء التي مخرجها من الصدر قريبا من محل الذكر، أولى بأن تكون عبارة عن المذكور بالقلب ، ولم تكن " الهمزة " لأنها مجهورة شديدة ، فكانت أولى بالمتكلم الذي هو أظهر، والهاء – لخفائها – أولى بالغائب، الذي هو أخفى وأبطن ، ليعلم ما في النفس من مذكور . " [15] هذه الأبعاد النفسية لبنية الضمير تعطي تعزيزا لدلالة استخدام الضمير في هذا الموضع دون غيره من مواضع الأمر بالتقوى والله أعلم ، فهي في آيتي الأنعام والروم تعزز ثبات المؤمنين على ما استقر في قلوبهم من معرفة الله تعالى ، وفي سورتي العنكبوت ونوح توحي بما كان يبتغيه الأنبياء للمدعوين من استقرار معرفة الله في القلوب .

وهكذا نستطيع تبين خصائص إلحاق ضمير الغائب في مواضع الأمر بالتقوى في القرآن الكريم وتميز دلالتها في كل نسق لتعطي تجانسا معنويا في كل سياق يتناسب مع معطيات الأوامر المصاحبة للأمر بالتقوى ومؤديا دوره في مقتضيات الحال لدى المخاطبين بهذه الأوامر بدقة تؤكد أن النسق القرآني المتشابه في بعض خصائصه البلاغية التي تعبر عن معاني الصيغ النحوية ، كان متميزا بدلالات تحمل مغزى خاصا في كل موضع جاء فيه .

وقد حاول البحث استنباط جزء من أشكال الخطاب القرآني في الأمر بالتقوى وهو ما يتعلق بصورة الأمر الملحق به ضمير الغائب . ليكون لبنة في دراسات استنباط خصائص الذوق لدى الشخصية العربية التي نزل عليها القرآن الكريم فأبهر قريحتها وأعجز ألسنتها ، حيث يتسنى لنا ذلك من خلال متابعة استنباط سمات التعبير القرآني في تناول كل القضايا التي عالجها القرآن الكريم .

والله من وراء القصد هو نعم المولى ونعم النصير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين

الهوامش

1. تفسير مقاتل بن سليمان أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: 150هـ) المحقق: عبد الله محمود شحاته ،الناشر: دار إحياء التراث – بيروت الطبعة: الأولى - 1423 هـ (3/ 377).
2. الوسيط في تفسير القرآن المجيد المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ) تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1994 م (3/ 416).
3. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة (13/ 335).
4. تفسير الرازي - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) ، الناشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ (25/ 38).
5. الدر المنثور في التفسير بالمأثور : عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي المتوفى (911هـ) ، الناشر : دار الفكر – بيروت (8/ 289).
6. تفسير النسفي - مدارك التنزيل وحقائق التأويل : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي ، المتوفى (710هـ) حققه وخرج أحاديثه : يوسف علي

بديوي ، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو ، الناشر : دار الكلم الطيب ، بيروت، الطبعة الأولي 1419هـ - 1989 م (3/ 541).

7. تفسير القرطبي (18/ 299).
8. تفسير النسفي - مدارك التنزيل وحقائق التأويل (3/ 541).
9. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (20/ 427).
10. تفسير مقاتل بن سليمان (1/ 569).
11. نفسه .
12. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (25/ 99).
13. يُنظر: الكتاب 6/2، 11، والمقتضب 281/4، والإنصاف، المسألة الواحدة بعد المائة، 707/2، وأسرار العربيّة 345، واللّباب 494/1، وشرح المفصّل 56/3، 87/5، والهمع 191/1.
14. الحدود في علم النحو أحمد بن محمد بن محمد البجائي الأُبَّذيّ، شهاب الدين الأندلسي (المتوفى: 860هـ) المحقق: نجاة حسن عبد الله نولي الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الطبعة: العدد 112 - السنة 33 - 1421هـ/2001م (ص: 476) .
15. نتائج الفكر في النَّحو للسُّهَيلي المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: 581هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى: 1412 - 1992 م (ص: 174).

المراجع

1. تفسير الرازي – مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) ، الناشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة: الثالثة – 1420 هـ .
2. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة .
3. تفسير النسفي – مدارك التنزيل وحقائق التأويل : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي ، (المتوفى 710هـ) حققه وخرج أحاديثه : يوسف علي بديوي ، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو ، الناشر : دار الكلم الطيب ، بيروت، الطبعة الأولي 1419هـ - 1989 م .
4. تفسير مقاتل بن سليمان أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: 150هـ) المحقق: عبد الله محمود شحاته ،الناشر: دار إحياء التراث – بيروت الطبعة: الأولى - 1423 هـ .
5. الحدود في علم النحو أحمد بن محمد بن محمد البجائي الأُبَّذيّ، شهاب الدين الأندلسي (المتوفى: 860هـ) المحقق: نجاة حسن عبد الله نولي الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الطبعة: العدد 112 – السنة 33 – 1421هـ/2001م.
6. الدر المنثور في التفسير بالمأثور : عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي المتوفى (911هـ) ، الناشر : دار الفكر – بيروت.
7. نتائج الفكر في النَّحو للسُّهَيلي : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: 581هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى: 1412 - 1992 م .
8. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

9. الوسيط في تفسير القرآن المجيد المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ) تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1994 م .

10. الكتاب : عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: 180هـ) المحقق :عبد السلام محمد هارون الناشر :مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة :الثالثة، 1408 هـ - 1988 .

11. المقتضب : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد (المتوفى: 285هـ) المحقق :محمد عبد الخالق عظيمة.الناشر :عالم الكتب. – بيروت .

12. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين المؤلف :عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: 577هـ) الناشر :المكتبة العصريةالطبعة :الأولى 1424هـ- 2003 م .

13. أسرار العربية :عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: 577هـ) الناشر :دار الأرقم بن أبي الأرقم الطبعة :الأولى 1420هـ- 1999 م.

14. اللباب في شرح الكتاب :عبد الغني بن طالب بن حمادة بن إبراهيم الغنيمي الدمشقي الميداني الحنفي (المتوفى: 1298هـ) حققه، وفصله، وضبطه، وعلق حواشيه :محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر :المكتبة العلمية، بيروت – لبنان.

15. شرح المفصل للزمخشري :يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (المتوفى: 643هـ) قدم له :الدكتور إميل بديع يعقوبالناشر :دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة :الأولى، 1422 هـ - 2001 م

16. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع :عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) المحقق :عبد الحميد هنداوي الناشر :المكتبة التوفيقية – مصر .